سلسلة رجال من طين ونور

حكاية الأمير شاه الكرماني والرحال

وطبيب القلوب



تَأْلِيفُ الْفَقِيرِ إِلَى اللَّهِ

واعديل يَاسِين

الفهرس

الفصل الأول: الأمير شاه الذي خلع تاجه

في أروقة القصور ببلاد كرمان، حيث يتلألأ الذهب والجاه، كان هناك شاب ينظر إلى الأفق بعيداً عن بريق المُلك. إنه الأمير **شاه بن شجاع الكرماني**، سليل الملوك الذي كانت الدنيا بين يديه، لكن قلبه كان معلقاً بمملكة أخرى لا تزول. في ليلة حاسمة، قرر الأمير **شاه** أن يتعرى من الأغراض الدنيوية، فخلع عباءة الإمارة الفاخرة وتشمر لسلوك طريق الزهد، متخففاً من أعباء الطين ومتحققاً بالشوق إلى رب العالمين.

انطلق الأمير **شاه** في الآفاق، واشتهر بين أهل التصوف بـ "حاد الفراسة"؛ فكانت عيناه الثاقبتان تبصران ما وراء الوجوه. كان يجلس بين مريديه بثيابه البسيطة ووجهه الوقور، ويقول لهم: «من غض بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشهوات، وعمر باطنه بدوام المراقبة وظاهره باتباع السنة، وعود نفسه أكل الحلال، لم تخطئ له فراسة».

ولم يكن الأمير **شاه** مجرد زاهد، بل كان طبيباً للسرائر. كان يلتفت إلى أصحابه ويأمرهم بأن يظهروا له كل ما يجري في خواطرهم وخوافيهم، ثم يجلس ليداوي كل واحد منهم بدوائه المناسب، وهو يردد: «ليس بعاقل من كتم الطبيب علته». وكان يحذرهم من مخالطة أهل الدنيا ويقول لهم: «علامة الركون إلى الباطل، التقرب إلى المبطلين».

الفصل الثاني: في شعاب البادية مع إمام المتوكلين

في رحلته الطويلة لطلب العلم وحسن الصحبة، التقى الأمير **شاه** برجلٍ كان يمثل أسطورة التوكل في زمانه؛ إنه أبو تراب النخشبي. كان أبو تراب إماماً للمتجردين، يقطع الفيافي والقفار في البادية والحجاز بلا زاد سوى يقينه.

ذات يوم، بينما كان أبو تراب يجوب الصحراء في أحد أسفاره، حدث معه أمر عجيب. لم تكن نفسه تشتهي طعاماً قط، ولكن في ذلك السفر تمنت عليه نفسه -للمرة الأولى والوحيدة في حياته- أن يأكل خبزاً وبيضاً. فمال عن الطريق ودخل إحدى القرى ليشتري حاجته. وما إن وطأت قدماه القرية، حتى ثار في وجهه رجل وتعلّق بثيابه صارخاً بالناس: "هذا كان مع اللصوص!". هجم أهل القرية على الشيخ الزاهد، وبطحوه أرضاً، وانهالوا عليه بالضرب حتى جلدوه سبعين جلدة وهو صابر لا يتكلم.

وفجأة، مرّ رجل من أصحاب المعرفة بالقرية، فنظر إلى المجلود وصعق مستنكراً: "ويلكم! هذا أبو تراب النخشبي!". توقفت السياط فوراً، واعتذر الأهالي منه في ندامة شديدة، وأسرع الرجل الذي اتهمه وأدخله منزله مكرماً، ثم أحضر له طبقاً ساخناً.. ويا للعجب، كان الطبق يحتوي على خبز وبيض! نظر أبو تراب إلى الطبق المبتغى، وضاحك نفسه قائلاً: «كُلها بعد سبعين جلدة!».

عاش أبو تراب شامخاً بالتوكل، وحين دنت ساعته في البادية بين مكة والمدينة، مات غريباً ووحيداً. ورآه الراحلون واقفاً منتصباً كأنه حي لا يمسكه شيء، حتى نهشته السباع، ليرحل إمام المتوكلين تاركاً خلفه حكمة خلدها التاريخ: «إذا ألفت القلوب الأعراض، صحبتها الوقيعة في الأولياء».

الفصل الثالث: بركات الشيخ القديم في دمشق

لم تقتصر صحبة الأمير **شاه** على أبي تراب، بل امتدت لتشمل شيخاً قديماً جليلاً يسكن قرية "بسرى" فوق دمشق، وهو أبو عبيد البسري. كان أبو عبيد رجلاً تحفه البركات والكرامات، لكنه كان يغلفها بثوب من التواضع الشديد.

يروي محمد، غلام أبي عبيد، قصة رحلته إلى الحج قائلًا: "ودعت الشيخ أبا عبيد وأنا أريد مكة، فسألني: هل معك شيء؟ فقلت: لا، ليس معي سوى هذه الركوة (وعاء الماء). فقال لي الشيخ: إذا أردت شيئاً أو جعت أو عطشت، فصَلِّ ركعتين واجعل الركوة على يمينك، فإذا سلمت رأيت كل ما تحب". ويقول الغلام إنه في وسط الطريق عطش الناس وصاحوا من الظمأ في منزل لا ماء فيه، فتذكر وصية الشيخ ورمى الركوة وصلى ركعتين، فما سلم إلا ووجد الركوة تطفو سابحة فوق رأس ماءٍ وفير، فجاء الناس واستقوا حتى ارتووا جميعاً ببركة دعاء الشيخ.

وفي سنة أخرى، خرج أبو عبيد غازياً في سبيل الله مع إحدى السرايا، وفي وسط المعركة مات المهر (الجواد الصغير) الذي كان يركبه. وقف الشيخ فوق جواده الميت، ورفع بصره إلى السماء وقال بقلب خاضع: «يا رب، أعرنا إياه حتى نرجع إلى بسرى». وفجأة، نفض المهر التراب عنه وقام واقفاً كأن لم يصبه سوى النعاس! ركبه الشيخ وتابع غزوته وعاد إلى قريته. ولما وصل المنزل، قال لابنه: "يا بني، خذ السرج عن المهر, فإنه عارية". وما إن نزع الابن السرج حتى وقع الجواد على الأرض ميتاً في الحال.

ورغم كل هذه الكرامات، كان أبو عبيد يبكي خوفاً من ربه، ويقول لصاحبه أبي حسان وعيناه تذرفان الدموع: «ما غمي ولا أسفي إلا أن يقال لي غداً بين يدي الله: شيخ سوء كنت، اذهب فقد عفوت عنك! إنما أنا أملي في الله أن يهب لي كل من أحبني». ومات الشيخ البسري فقيراً لم يترك خلفه درهماً ولا ديناراً.

الفصل الأخير: رحيل الحمامة

دارت الأيام دورتها، واقتربت سنة ثلاثمائة للهجرة، وكان الأمير **شاه بن شجاع الكرماني** قد أصبح شيخاً كبيراً يُعد من الأبدال.

وفي يوم من الأيام، كان العارف سهل بن عبد الله التستري جالساً مع أصحابه في مجلسه، وفجأة، سقطت بينهم حمامة ضعيفة. أراد أحد الحاضرين تنحيتها، لكن سهل قال برفق: "أطعمها واسقها". فقام أحد الأصحاب وفتت لها خبزاً وسكب ماءً، فلقطت الطير الخبز وشربت من الماء، ثم نفضت ريشها ومضت طائرة في السماء.

التفت الأصحاب إلى سهل وسألوه مبهوتين: "يا أبا عبد الله، أي شيء هذا الطير؟". فبكى سهل بن عبد الله وقال بصوت متهدج: «مات أخي **شاه بن شجاع** بكرمان.. فجاءت هذه تعزيني به».

تعجب الحاضرون وكتبوا تاريخ ذلك اليوم وتلك الساعة بالضبط. وبعد فترة، قدمت قافلة من أرض كرمان، يرتدي أصحابها ثياب العزاء، فسألوهم عن يوم وفاة الشيخ الأمير **شاه**، فذكروا أنه مات في نفس اليوم والوقت واللحظة التي سقطت فيها الحمامة في مجلس دمشق.

لقد رحل الأمير **شاه** الذي ترك ملك الأرض ليشتري ملك النفوس، تاركاً أصحابه وكلماته تضيء عتمة الطريق لكل السالكين.

المصادر والمراجع للقصة:

1. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - لأبي نعيم الأصبهاني (الجزء ١٠، ص ٢٣٨).
2. الرسالة القشيرية في علم التصوف - لأبي القاسم القشيري (ص ٨٢).